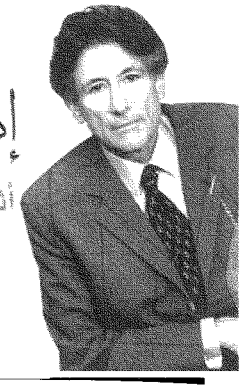

إدوارد سعيد

أثرُه في العالم... وفينا

رحلة إدوارد سعيد إلى إيثاكا

□ جوزيف مسعد

«جوزيف، أَمازلْت نائمًا؟ الساعة الثامنة صباحًا!» كانتَ هذه أُولى الكلمات التي كنت أَسْمعها حالَ رفعي سمّاعةَ الهاتف ثلاثَ مرات أو أربعًا في الأسبوع. كان صوت إدوارد القويّ والمشاكِس على الخطّ يحثّني على اتّباع نهجه في العمل: «أنا مستيقظٌ منذ الخامسة والنصف.» كنتُ أحاول أن أَجْمع الكلمات التي أَفلتتْ منّي كي أبرِّر له أنّي استيقظتُ منذ نصف ساعة، وأنّي في صدد شرب قهوة الصباح. «أمتأكّدٌ أنتَ ممّا تقول؟ صوتُكَ يبدو وكأنّك مازلتَ في السرير!»

كيف يتعامل المرءُ مع إرث رجلٍ عظيم كإدوارد سعيد؟ كيف تستطيع حياةُ إدوارد سعيد، ذلك المثقف العالميّ النموذجيّ، أن تعلّمنا كيف نُكْمل المسيرة؟ كان دائمًا يَبْدو متوجِّهًا إلى مكان ما، نحو هدفٍ مهمّ. كان دائمًا يَبْحث عن مكان يستطيع أن يتماهى معه. ولم يكن مكانًا ماديًا بالضرورة؛ على العكس: إنّه مكان غيرُ ماديّ البتة، يستطيع فيه أن يرتاح، وأن يَشْعر أنّه في بيته. في الخريف الماضي في جامعة كامبردج حيث قضى عدة أسابيع يحاضر كان سعيدًا أنّه في مكانٍ فكريّ وسياسيّ مختلف، مكانٍ خالٍ من عنجهية الإمبراطورية الأميركية الموجودة في كلّ مكان في الولايات المتحدة، وأنّه كان بعيدًا عن تدنّي الحياة الفكرية في الولايات المتحدة بعد ١١ أيلول/سبتمبر. كنتُ أراه باستمرار هناك، إذ كنتُ أَقْضي سنة تفرُّغي في جامعة لندن. تكلّمنا عن حلم الانتقال الدائم إلى بريطانيا كي نَهْرب من التطوُّرات المرعبة في الولايات المتحدة. ولكنْ في نهاية المطاف، وعلى الرغم من الإغراء الذي مثّله هذا المكانُ الماديُّ الجديد، بقي إدوارد يَبْحث عن شيء آخر، عن مكانٍ آخر.

كما قال لنا في مذكّراته، شعر إدوارد في معظم حياته أنّه «خارج المكان،» ولكنّه خَلق مكانًا فكريًا بل عالمًا فكريًا استطاع أن يَنْتمي إليه، وطَلب منّا الانضمامَ إليه هناك. كان للمكان الجديد الذي أَوْجده لغةٌ جديدةٌ ونحوٌ جديدٌ بل ومفرداتٌ جديدةٌ مكّنتنا نحن (الذين شَعَرْنا مثلَه أنّنا «خارج المكان» في عالم مرعب وظالم) من الانتماء إليها. ولقد سَكَنَ الكثيرون منّا في هذا المكان الجديد الذي أَوْجده إدوارد حيِّزًا للمقاومة، فَشَعَرنا فيه بالحماية من الانحطاط المعرفيّ الذي غزا العالم ومن الظلم الذي يمارَسُ باسم الهويات والسلطة الإمبراطورية.

بدأ انبهاري بمسيرة إدوارد سعيد الفكرية والسياسية منذ أن وَقعتْ عيناي على أولى صفحات كتابه **الاستشراق**. لا شيء رأيته قبل **الاستشراق** أو بعده فَكَّ لغزَ أركيولوجيا الهوية «الغربية» الأوروبية كما فكّه هذا الكتاب. العبقرية في كتاب سعيد تبدو جليةً في إيضاحه لنقاط الوصل والعلاقات والتعديلات والإزاحات التي كشف عنها في تعريفه الذي يُفيد بأنّ إنتاج الاستشراق للشرق كان حيلةً لإنتاجه **للغرب**. أيْ أنّ الاستشراق لم يكن يومًا عن «الشرق» أَوْ عن هويته وثقافته، بل كان هدفُه إنتاجَ «الغرب» وهويته وثقافته. وعليه، لن يكون هناك غربٌ لو لم يُخْتَرَع الشرقُ نقيضًا له، عكسًا له، آخَرَ له. هذا هو الدور الذي نَصَّبَه إدوارد سعيد لنفسه: دور الأنثروبولوجيّ، أو عالم الإناسة، الذي يَدْرس أوروبا وثقافاتها وفنُونَها وآدابَها، وهو الدور الذي صَعَدَ به إلى قمة إنتاج المعرفة في الأكاديمية الغربية. ولقد أَغْضب الكِتابُ بعضَ أعداء إدوارد سعيد من التنابلة الذين صُعِقوا «لوقاحته» المزعومة التي تمثّلتْ لهم بإخضاعه الأوروبيين البيضَ لنظرته «كشرقيّ.» ولكنّ سعيدًا، بدراسته أوروبا، كان متناغمًا مع نفسه: وبعكس المنهج الأوروبيّ العنصريّ لدراسة غير الأوروبيين، لم يشيِّئ الأوروبيَّ بل اعتبر نفسَه مسؤولاً عمّا يَكْتبه أمام الناس والثقافات التي كَتَبَ عنها. لم يشيِّئ سعيد ما أراد أن يَعْرفه، كما فعل ويَفْعل المستشرقون. وهذا المنهج هو الذي مكّن الكثيرَ من الأميركيين والأوروبيين من التعاطي والتعامل مع أفكاره المطروحة.

رحلة إدوارد سعيد الفكرية أخذتْه من دراسة الكاتب البولنديّ كونراد إلى آخر كتابٍ له عن الإنسانوية (يَصْدر قريبًا عن دار جامعة كولومبيا للنشر). أخذتْه رحلتُه أيضًا من الفيلسوف الإيطاليّ ڤيكو إلى غرامشي وآورباخ وفوكو، من الموسيقيّ باخ إلى عازف البيانو الشهير غولد وشونبرغ، من أدورنو إلى جون كيج. كتب سعيد عن الأدب الأوروبيّ والعربيّ والإفريقيّ والآسيويّ، وعن أدب أميركا اللاتينية وأدب الولايات المتحدة. كتب عن محفوظ، ييتس، ملڤيل، جنيه، أوستِنْ، فلوبير، سويْف، سويفت، منيف، زولا، مان، رُشدي، پرُوست،

نيپول، موريسون، بورخِس، آتشيبي، درويش، جورديمر، موپاسان، جِيدْ، سيزير، ترغينيف، كيتس، كيپلنغ، أدونيس، وعشراتٍ غيرهم. كان يحبّ الفنونَ، وأحبّ تحية كاريوكا، تلك الراقصة والفنانة الرائعة التي جعلتْ من الرقص نوعًا جديدًا من الفنّ.

كانت رحلة إدوارد سعيد مبنيةً على رفض جذريّ للجهل والتزام لا يهتزّ بالنضال ضدّ الظلم. كلُّ ما كتبه إدوارد سعيد كان يدور في فلك هذيْن المبدأيْن. وقد بقي يناضل من أجل العدالة للشعب الفلسطينيّ، ورَفَضَ القبول بأنصاف الحلول المبنية على العنصرية وعلى إبقاء الشعب الفلسطينيّ رازحًا تحت الاضطهاد وعلى إعفاء إسرائيل من المسؤولية الأخلاقية والواقعية. بقي إدوارد ثابتًا في مواقفه، مدافعًا عن الإسلام دينًا وثقافة ضدّ الادّعاءات العنصرية الأميركية. بعد ١١ أيلول/سبتمبر، وبعكس غيره من المثقفين العرب في الغرب الذين انضمّوا إلى الجوقة الغربية بإدانة كلّ ما هو عربيّ ومسلم، أصرّ على دفاعه عن الإسلام والمسلمين ضدّ التغطية الإعلامية الغربية التي حاولتْ أن تنزع الإنسانية عن المسلمين. وكانت كتاباتُه ومحاضراتُه دائمًا مبنيةً على أنسنة المسلمين والعرب ضدّ هذا المدّ العنصريّ. كان عداءُ إدوارد لأنصاف المثقفين (عربًا، أو أوروبيين، أو أميركيين)، الذين باعوا ضمائرَهم بأسعارٍ بخسة وراحوا يبدّلون أسيادَهم كما يبدّل المرءُ جواربَه، مبنيًا على التزامه بالمعرفة المستنيرة ضدّ عالمٍ محكومٍ من «خبراء» سُذّجٍ يَنْشرون الجهلَ على أنَّه معرفةٌ، لقاءَ سعر مناسب.

على نقيض هؤلاء، مضى إدوارد سعيد في مسيرته غيرَ مكترث بـ «الموضة» الجديدة القائمة على «لَوْم الضحايا.» كان يتشاجر باستمرار مع طبيبه وصديقه كانتي راي. فقد كان راي، وهو من أصل هنديّ، يحاول أن يثني إدوارد عن السفر والعمل المرهق، وكان يَأْمره بأن يرتاح ويقلّلَ من التزاماته، ولكنْ دون جدوى، إذ لا شيء كان يوقف إدوارد عن العمل الدؤوب، حتى أصبحتْ كلُّ رحلة يقوم بها داخل الولايات المتحدة أو خارجها معركةً مع طبيبه الذي أصبح بمثابة الأب القاسي. ولكنّ إدوارد كان دائمًا يَرْبح المعركة ويسافر إلى لندن، مدريد، باريس، بيروت، القاهرة، سياتل، لوس أنجلوس، جوهانسبرغ، أمستردام، برلين، رام اللّه، ومدن أخرى.

البعض قال إنّ رحلته الأخيرة إلى إشبيلية أرهقتْه وأدّت إلى وفاته. أنا لا أوافقهم على هذا الرأي. أنا مؤمن بأنّ رحلات إدوارد سعيد ومحاضراته في الأعوام الاثنيْ عشر المنصرمة وإصرارَه على الاستمرار في جدول عمله المضني هي بالضبط ما مكّنه من مقاومة هذا المرض الخبيث كلّ هذه المدة. ولو أنّ إدوارد توقّف عن إلقاء المحاضرات والكتابة لكان المرض قد قضى عليه منذ سنين.

تعرّفتُ على كتابات إدوارد سعيد قبل عشر سنوات من لقائه. في الاثنيْ عشر عامًا التي عرفتُه فيها تلميذًا وصديقًا وزميلاً في الجامعة، أصبح إدوارد أبًا لي يَنْصحني في عملي الثقافيّ والسياسيّ، وحتى في حياتي الشخصية. كان يطالبني دائمًا، كما طالب الجميع، بالالتزام الكليّ الذي يتطلّبه العملُ الفكريُّ الجديُّ. كنا نتشاجر أحيانًا بسبب عدم تسامحي مع بعض حلفاء الشعب الفلسطينيّ الذين لم يكونوا يعطوننا دعمَهم الكامل. كان يحذّرني (أو بالأحرى يصيح في وجهي) بألاّ أُطْلق العنانَ لحماسي «الشبابيّ» في عالم ليس لنا فيه إلاّ قلةٌ من الأصدقاء وكثرةٌ من الأعداء. كنّا نتجادل في موسيقى شوپان وجون فيلد، في أم كلثوم وعبد الوهاب. وفي إحدى الأمسيات في بيتي اختلفنا على أيّ موسيقى نستمع إليها أثناء تناولنا طعامَ العشاء: إطلالة أسمهان الأوبرالية في أغنية «الطيور» أو ليزا ديلاكازا في أدائها الرائع «للأغنيات الأربع الأخيرة» للموسيقار ريتشارد شتراوس؟

حَمَلَ إدوارد همومَ شعبه في كلّ مكان وراح يروي الرواية الفلسطينية المليئة بالعذاب والظلم ويحارب أعداءنا من كل منبر. كان متفائلاً حتى آخر رمق في حياته. بقي ثابتًا في إيمانه بأنّ العدالة ستكون من نصيب الفلسطينيين يومًا. وكنتُ عندما أَشْعر بالاكتئاب والتشاؤم من سادية الإسرائيليين ووحشيتهم اللتيْن لا تتوقفان، يأتي صوتُ إدوارد سعيد مؤكّدًا: «ما هدفُ العمل الفكريّ والسياسيّ إنْ بقي المرءُ متشائمًا؟ إنّ العمل الفكريّ والعمل السياسيّ

«جوزيف، أما زلت نائمًا؟ الساعة الثامنة صباحًا!»

يتطلبان التفاؤل.» كان يَعْرف أنّ الرحلة ستطول، ولكنّه كان متأكّدًا أنّنا سنصل إلى الهدف المنشود في النهاية. وهذا لا يعني أنّ إدوارد سعيد لم يكن يَشْعر بالإحباط. على العكس، كان يَشْعر بالإحباط كثيرًا، ولكنّه لم يدع إحباطَه يومًا يزحزح قناعتَه بأنّ الظلم والاستبداد سيُقاوَمان دائمًا... مهما طالا.

لقد ترك إدوارد الكثيرَ من الوَرَثة. نحن، في كلّ مكان، نسكن المكان الذي أَوْجده لنا والذي سيبقى دائمًا مسكونًا بروحه. دَعْنا نقرأْ جوناثان سويفت «طِباقيًا» حسب نهج إدوارد سعيد، ولنُعِدْ ترتيب الأدوار في روايته **رحلات جليفر** كي نصبح نحن أقزامَ ليليبوت الكُثُر الذين بَطَحوا المارد جليفر، ذلك المارد الذي سنَكْشف أنّه **هو** الشرير الحقيقيّ وأنّ أهالي ليليبوت الأقزام هم المظلومون. دَعْنا نكملْ مسيرة إدوارد سعيد وعمله والتزامه. فقد كان إدوارد أهمّ مثقف عالميّ، ومثالُه سيهدينا إلى القيام بالمهامّ التي تنتظرنا. لن يكون الأمرُ سهلاً، ولكنّ هنالك جزءًا من إدوارد سعيد داخلَ كلّ مَنْ شاركه ويشاركه التزامَه. ونحن سنكمل المسيرة. هنا يجب أن نتذكّر أنّ ما كان يعبِّئ طاقةَ إدوارد سعيد لم يكن الهدفَ المنشودَ وحده بل أيضًا ـ وهذا مهمّ جدًا ـ المسيرة في حدّ ذاتها والرحلة التي ستوصله وتوصلنا معه هناك. وربما تناغمتْ قصيدةُ الشاعر اليونانيّ المصريّ كفافي بعنوان «إيثاكا» Ithaka، والتي أحبّها إدوارد، مع رحلته ومسيرته. وعندما قرأتُ القصيدة من جديد بعد وفاته، وجدتُ كلماتها مليئةً بالإلهام:

«أَبقِ إيثاكا في فكركَ دائمًا
قَدَرُكَ أن تصل إلى هناك
ولكنْ لا تستعجل الرحلةَ أبدًا.
فمن الأفضل أن تستمرّ سنوات،
كي تكون عجوزًا عندما تصل إلى الجزيرة،
ثريًا بكلِّ ما غَنِمْتَه على الطريق
وغيرَ متوقِّعٍ أن تجعل إيثاكا منكَ ثريًا.»

بالفعل، ولأنّ إدوارد وصل الآن إلى إيثاكا، فإنّ كفافي يُكْمل قصيدته قائلاً:

«لقد أعطتكَ إيثاكا الرحلةَ الرائعة
لو لم تكن إيثاكا موجودةً لما شَدَدْتَ الرِّحالَ
لم يعد لديها أيُّ شيء تعطيكَ إياه الآن.
وإنْ وجدتَها فقيرةً، فستعرف أنّها لم تَخْدعْكَ.
ستكون أنت حكيمًا عندها، غنيًا بالتجارب
وستَفْهم وقتَها ما تَعْنيه كلُّ هذه الإيثاكات.»

الآن وبعد وفاة إدوارد سعيد، معظمُنا غارقٌ في الحزن والحداد على خسارتنا الفادحة. لكنّ علينا ألاّ نكتئب طويلاً: إذ إنّ ذلك لن يعجب إدوارد. فعندما توفّي صديقاه الحميمان إبراهيم أبو لغد وإقبال أحمد، حزن إدوارد كثيرًا ولكنّه لم يَدَعْ حزنَه يشلّ حركته، بل حَوَّله إلى مضاعفةٍ لجهوده، وعَمِلَ بجدٍّ كي يكمل مسيرتهما.

لن يرنّ جرسُ الهاتف في الثامنة صباحًا معلنًا صوتَ إدوارد المدوّي والحنون. ولكنّ كلمات إدوارد سعيد وأفكاره ستستوطن قلوبَنا وعقولَنا، ملهِمةً عملَنا الفكريّ والسياسيّ. فهيّا بنا كي لا نضيع الوقت!

نيويورك

جوزيف مسعد

أستاذ السياسة والفكر العربي الحديث في جامعة كولومبيا بنيويورك.